. . أو هكذا أتمنى !

رائع مايراه الشعراء . .

سماوى مايراه القديسون . .

مروع مايراه المعذبون . .

وأنا مفتون بالجميع . وبالطبيعة . ولذلك ألتقط البذرة والورقة والثمرة واللمحة والنغمة ، ثم يتفجر إحساسى بها جميعاً ، امتناناً لحكمة الحياة ، وسر الكون . فأتذوق وأستمتع وأتوجع وألعن وأرفض وأسخط وأثور ، على كل مايقع فى يدى وفى عينى ومن عينى أيضاً .

إننى أفعل ماتؤديه الكائنات الأخرى الصغيرة فى تواضع شديد. ماتفعله الفراشة والنحل ، طائرات دائرات راجعات، تقبل كل زهرة وتمتص وتفرز إلى الأبد . . وهى جميعا — ونحن معها — تساهم فى الكوروس اللانهائى لملايين المخلوقات التى تلمس إرادة الله وتنحنى لكل ماهو جميل ، ولكل ماله معنى وهدف . .

ولكن التواضع غريزة الحيوانات ، ورذيلة الإنسان . . وليس من خصائص المفكر أو الفنان . .

. فالفنان يريد أن يفعل شيئاً ، أو يتوهم ذلك . . يريد أن يجعل لكل مايفعله معنى ، أو يتمنى ذلك . .

فهو فلاح فى كل أرض ، وربان لكل بحر ، وطيار لكل جو ، وشاهد على كل حكمة أرضية أوسماوية فى كل عصر . .

وهو بذلك يتحدى الطبيعة .

إنه يريد أن يصعد الجبال ويهبطها إلى الأبد ، حتى لو لم يكن لما يفعله أى هدف سوى التحدى — كما فعل البطل الإغريقى سيزيف .

أو يقف فى الماء العذب ولايذوقه . ويحاول ويفشل ولكن رغبته لاتنطفئ . وهو يعلم أنه لا أمل . ولكنه يتحدى — كما فعل البطل الإغريقى تنتالوس . .

أو يحرث الأرض ويبذرها بالملح . وهو يعلم أن الملح مقبرة البذور وهو يعلم أن الفاكهة لاتنبت من الملح . يحاول أن يضيف مرارة الملح إلى حلاوة الفاكهة . أن يضيف مرارة الواقع إلى حلاوة الوهم — منتهى الجنون أو منتهى الحكمة أيضا — ولكنه لايتوقف كما فعل البطل الإغريقى عوليس . .

أو ينتشى بجمال الحياة والطبيعة والفن وينسى كل شىء — كما فعل بنا البطل الإغريقى أورفينوس . . .

إن الإنسان هو الذى . إذا قامت القيامة ، راح يغرس شجرة . وهو يعلم أن عصفوراً واحداً لن يتأرجح على أغصانها . وأن إنساناً واحداً لن يسترخى فى ظلها . ولكنها إرادة التحدى . . هى التى تجعل الإنسان يزرع الحياة فى وجه الموت . يلوح بالأمل فى أهوال اليأس . . والتحدى هو الذى يجعله يخطف صفة الفلاح فى يوم انسحبت فيه الصفات من الجميع . . ويجعله يضيف كلمة بعد أن وضعت نقطة نهاية السطر فى نهاية كتاب الوجود . .

ولست إلى هذه الدرجة متفائلا أو متشائماً . .

وإنما أنا إنسان مهموم بالآخرين وبنفسى . . وعندى آراء فى أشياء ، بعض الآراء فى بعض الأشياء ، بعض الوقت !

. . أو هكذا أتوهم . فى هذه الصفحات !

أنيس منصور